بِالخَوَرِ وَالضَّعْفِ وَالوَسَاوِسِ وَالأَوْهَامِ، وَكُلِّ شَيْءٍ يخِيفُهُ، فَهَذَا نَتِيجَةُ عَدَمِ الإِيمَانِ بِالقَضَاءِ وَالقَدَرِ.

وَيجِبُ عَلَى العَبْدِ المؤْمِنِ مَعَ إِيمَانِهِ بِالقَضَاءِ وَالقَدَرِ أَنْ يُؤْمِنَ بَأَنَّ العِبَادَ لهُمْ أَفْعَالٌ يَفْعَلُونهَا بِاخْتِيَارِهِمْ، لَيْسُوا مُجْبَرِينَ عَلَيْهَا، فَهُوَ يُؤْمِنُ أَوْ يَكْفُرُ، أَوْ يُصَلِّي أَوْ يَتْرُكُ، أَوْ يَصُومُ أَوْ يُفْطِرُ، هُوَ الذِي يَفْعَلُ هَذَا، فَيُثَابُ عَلَى الطَّاعَاتِ ويُعَاقَبُ عَلَى المعَاصِي؛ لأَنَّهَا أَفْعَالُهُ، فَهُو لَا يُعَاقَبُ عَلَى القَضَاءِ وَالقَدَرِ إِنَّمَا يُعَاقَبُ عَلَى أَفْعَالِهِ هُوَ التِي يَفْعَلُهَا باخْتِيَارِهِ وَإِرَادَتِهِ، فَهُوَ يَقْدِرُ عَلَى أَنْ يَقُومَ لِيُصَلِّيَ الفَجْرَ وَيَقْدِرُ أَنْ يَنَامَ وَيَتْرُكَ صَلَاةَ الفَجْرِ، يَقْدِرُ أَنْ يَصُومَ رَمَضَانَ، وَيَقْدِرُ أَنْ يَتْرُكَ صِيَامَ رَمَضَانَ، وَيَقْدِرُ أَنْ يَمْنَعَ نَفْسَهُ مِنَ الفَوَاحِشَ، وَيَقْدِرُ أَنْ يَتْرُكَ نَفْسَهُ مَعَ الفَوَاحِشِ، كُلُّ شَيْءٍ هُوَ يَقْدِرُ عَلَيْهِ بِمَشِيئَتِهِ وَإِرَادَتِهِ، وَاللهُ أَعْطَاهُ الإِرَادَةَ، وَأَعْطَاهُ المشِيئَةَ، وَأَعْطَاهُ الاخْتِيَارَ أَنْ يَفْعَلَ أَوْ لَا يَفْعَلَ؛ وَلِذَلِكَ المُكْرَهُ لَيْسَ عَلَيْهِ شَيْءٌ؛ لِأَنَّهُ لَيْسَ لَهُ اخْتِيَارٌ، وَكَذَلِكَ المجْنُونُ لَيْسَ عَلَيْهِ شَيْءٌ؛ لِأَنَّهُ لَيْسَ لَهُ اخْتِيَارٌ؛ كَذَلِكَ الصَّبِيُّ الذِي لمْ يَبْلُغْ لَيْسَ عَلَيهِ شَيْءٌ؛ لَأَنَّهُ لَيْسَ لَهُ اخْتِيَارٌ حتَّى يَبْلُغَ.

فَلَابُدَّ مِنَ الإِيمَانِ بِهَذَا أَنهُ مَعَ الإِيمانِ بِالقَضَاءِ وَالقَدَرِ نُؤْمِنُ بَأَنَّ العِبَادَ لهُمْ أَفْعَالٌ وَلهُمْ إِرَادَةٌ وَلهُمْ مَشِيئَةٌ، لَا كَمَا تَقُولُهُ الجَبْرِيَّةُ(١): إِنَّ العِبَادَ مُجْبَرُونَ وَمُحرَّكُونَ فَقَطَ لَيسَ لهُمْ اخْتِيَارٌ، وَلَا كَمَا تَقُولُهُ المعْتَزِلَةُ: إِنَّ

---

(١) الجبر هو نفي الفعل حقيقة عن العبد وإضافته إلى الرب تعالى، والجبرية أصناف: فالجبرية الخالصة هي التي لا تثبت للعبد فعلاً ولا قدرة على الفعل أصلاً، والجبرية المتوسطة هي التي تثبت للعبد قدرة غير مؤثرة أصلاً. انظر: اعتقادات فرق المسلمين والمشركين (ص٦٨)، والملل والنحل (١/ ٨٥)، والتعريفات (ص١٠١).

اللهَ لَيْسَ لَهُ قَضَاءٌ وَقَدَرٌ، وَإِنَّمَا العِبَادُ يَسْتَقِلُّونَ بِأَفْعَالِهِم، وَهُمُ الذِينَ يَخْلُقُونَ أَفْعَالَهُم بِقُدْرَتِهِمْ لَيْسَ بِإِرَادَةِ اللَّهِ، وَلَا بِقَضَاءِ اللَّهِ وَقَدَرِهِ. فَالمُعْتَزِلَةُ وَالجَبْرِيَّةُ عَلَى طَرَفَيْ نَقِيضٍ، أَمَّا أَهْلُ السُّنَّةِ وَالجَمَاعَةِ فَهُمْ مُعْتَدِلُونَ فِي هَذَا، يَقُولُونَ: اللهُ ـ جَلَّ وَعَلَا ـ قَدَّرَ الأَشْيَاءَ، وَلَكِنَّهُ أَعْطَى العِبَادَ الاخْتِيَارَ وَالمَشِيئَةَ وَالإِرَادَةَ وَالقُدْرَةَ عَلَى الفِعْلِ أَوْ التَّرْكِ. قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ ﴿٤﴾ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ﴿٥﴾ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ﴿٦﴾ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ ﴿٨﴾ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ ﴿٩﴾ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ﴾ [الليل: ٤-١٠]، وَهَذَا فِيهِ رَدٌّ عَلَى الجَبْرِيةِ الذِينَ يَنْفُونَ أَفْعَالَ العِبَادِ واخْتِيَارَهِمْ، وَمَا عَلَيْهِ أَهْلُ السُّنَّةِ وَالجَمَاعَةِ هُوَ مُقْتَضَى القُرْآنِ والسُّنَّةِ، وَهُوَ الاعْتِدَالُ بَيْنَ الجبْرِيةِ وَالقَدَرِيةِ.

فَلَابُدَّ مِنَ الإِيمَانِ بِالقَدَرِ بِجَمِيعِ هَذِهِ المرَاتِبِ، فَمَنْ زَعَمَ أَنَّهُ لَا قَدَرَ، وَأَنَّ العِبَادَ هُمْ الذِينَ يَخْلُقُونَ أَفْعَالَهُمْ دُونَ قَدَرِ اللَّهِ كَالمعْتَزِلَةِ، فَهَذَا إِنْ كَانَ مُتَبنيًا لهَذَا الرَّأْيَ وَهُوَ يَعْلَمُ الأَدِلَّةَ، وَلَكِنَّهُ يُنْكِرُهَا وَيَأْخُذُ بِرَأْيِهِ، فَهَذَا كَافِرٌ بِلَا شَكٍّ، أَمَّا إِنْ كَانَ مُقَلِّدًا أَوْ جَاهِلاً فَهَذَا يُبَيَّنُ لَهُ، فَإِنْ أَصَرَّ عَلَى الكُفْرِ بِالقَدَرِ فَإِنَّهُ يُحْكَمُ بِكُفْرِهِ، لَكِنْ إِنْ كَانَ جَاهِلاً أَوْ كَانَ مُقَلِّدًا فَهَذَا لا يُكَفَّرُ مِنْ أَوَّلِ الأَمْرِ، وَإِنَّمَا يُبيَّنُ لَهُ ويُشْرَحُ لَهُ الأَمْرُ، فَإِنْ رَجَعَ فَالحَمْدُ للَّهِ، وَإِنْ أَصَرَّ فَإِنَّهُ يَكُونُ كَافِرًا.

وَلَا يَكْفِي أَنْ تُؤْمِنَ بِالقَضَاءِ وَالقَدَرِ، بَلْ لَابُدَّ أَنْ تَعْمَلَ وَلَا تَتَّكِلَ عَلَى القَضَاءِ وَالقَدَرِ، وَتَقُولَ: إِنْ قَدَّرَ اللهُ لي فَسَيَحْصُلُ وَإِنْ لَمْ يُقَدِّرْهُ فَإِنَّهُ لَا يَحْصُلُ وَلَا حَاجَةَ إِلَى العَمَلِ، كَمَا يَقُولُهُ الجَبْرِيَّةُ، فَهَذَا بَاطِلٌ؛ لَأَنَّ اللهَ أَمَرَ باتِّخَاذِ الأَسْبَابِ، وَأَمَرَ بِالعَمَلِ، وَأَمَرَ بِالسَّعْيِ فِي طَاعَةِ اللَّهِ، وَلَا يَتَّكِلُ

الإِنْسَانُ عَلَى القَضَاءِ وَالقَدَرِ، وَإِنَّمَا يَعْمَلُ وَيَتَحَرَّكُ وَيَطْلُبُ الخَيْرَ وَيَتْرُكُ الشَّرَّ، وَهُوَ لَا يُجَازَى عَنِ القَضَاءِ وَالقَدَرِ، وَإِنَّمَا يُجَازَى عَلَى عَمَلِهِ، وَعَلَى كَدِّهِ وَكَسْبِهِ، وَعَلَى إِرَادَتِهِ وَنِيَّتِهِ وَقَصْدِهِ، فَهُوَ يُحَاسَبُ عَلَى أَعْمَالِهِ، وَيُجَازَى عَلَى أَعْمَالِهِ، فَإِنْ كَانَتْ خَيْرًا فَخَيْرٌ، وَإِنْ كَانَتْ شَرًّا فَشَرٌّ.

هَذِهِ هِيَ أَرْكَانُ الإِيمَانِ، وَأَرْكَانُ الإِسْلَامِ، وَالإِسْلَامُ وَالإِيمَانُ مَرْتَبَتَانِ عَظِيمَتَانِ مِنْ مَرَاتِبِ الدِّينِ، فَإِذَا اجْتَمَعَا ـ بِأَنْ ذُكِرَ الإِسْلَامُ وَالإِيمَانُ ـ فُسِّرَ الإِسْلَامُ بِالأَعْمَالِ الظَّاهِرَةِ، وَفُسِّرَ الإِيمَانُ بِأَعْمَالِ القَلْبِ، كَمَا فِي هَذَا الحَدِيثِ حَدِيثِ عُمَرَ رضي الله عنه، وَكَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ [الأحزاب: ٣٥]، وَأَمَّا إِذَا ذُكِرَ أَحَدُهُمَا وَحْدَهُ دَخَلَ فِيهِ الآخَرُ، فَإِذَا ذُكِرَ الإِسْلَامُ وَحْدَهُ دَخَلَ فِيهِ الإِيمَانُ؛ لِأَنَّهُ لَا يَكُونُ إِسْلَامًا صَحِيحًا إِلا بِالإِيمَانِ، وَإِذَا ذُكِرَ الإِيمَانُ وَحْدَهُ دَخَلَ فِيهِ الإِسْلَامُ؛ لِأَنَّهُ لَا يَكُونُ إِيمَانًا صَحِيحًا إِلَّا بِالإِسْلَامِ، فَلَابُدَّ مِن اجْتِمَاعِ الأَمْرَينِ، وَلَا يَنْفَعُ أَحَدُهُمَا دُونَ الآخَرِ، فَلَا إِسْلَامَ بِدُونِ إِيمَانٍ، وَلَا إِيمَانَ بِدُونِ إِسْلَامٍ، يَعْنِي: لَا تَكْفِي الأَعْمَالُ الظَّاهِرَةُ عَنْ أَعْمَالِ القَلْبِ، وَلَا تَكْفِي أَعْمَالُ القَلْبِ عَنْ الأَعْمَالِ الظَّاهِرَةِ.

وَمِنْ ثَمَّ قَالَ العُلَمَاءُ: إِنَّ الإِسْلَامَ وَالإِيمَانَ إِذَا ذُكِرَا جَمِيعًا افْتَرَقَا فِي المَعْنَى، فَيُفَسَّرُ الإِسْلَامُ بِكَذَا، وَيُفَسَّرُ الإِيمَانُ بِكَذَا، وَإِذَا ذُكِرَ أَحَدُهُمَا فَقَطْ دَخَلَ فِيهِ الآخَرُ[1].

---

(١) انظر: كتاب الإيمان الكبير لشيخ الإسلام ابن تيمية ضمن مجموع الفتاوى (٧/ ٢٥٩)، وفتح الباري (١/ ١١٥)، وعمدة القاري (١/ ١٩٦).

وَيَأْتِي حِينَئِذٍ حُكْمُ مُرْتَكِبِ الكَبِيرَةِ مِنْ كَبَائِرِ الذُّنُوبِ التِي هِيَ دُونَ الشِّرْكِ، هَلْ يُقَالُ لَهُ: مُسْلِمٌ أَوْ يُقَالُ لَهُ: مُؤْمِنٌ، أَوْ لَا يُقَالُ: مُسْلِمٌ وَلَا مُؤْمِنٌ؟(١) أَهْلُ السُّنَّةِ وَالجَمَاعَةِ وَالمذْهَبِ الحقِّ أَنَّ مُرْتَكِبَ الكَبِيرَةِ التِي دُونَ الشِّرْكِ يُقَالُ لَهُ: مُؤْمِنٌ، لَكِنَّهُ نَاقِصُ الإِيمَانِ، فَالإِيمَانُ يَزِيدُ بِالطَّاعَةِ وَيَنْقُصُ بِالمعْصِيَةِ، كَمَا دَلَّتْ عَلَى ذَلِكَ الأَدِلَّةُ، قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا﴾ [الأَنْفَال: ٢]، فَدَلَّ عَلَى أَنَّ الإِيمَانَ يَزِيدُ، وَلَيْسَ هُوَ شَيْئًا وَاحِدًا، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِيمَٰنًا﴾ [المدثر: ٣١]، وَقَالَ: ﴿وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْاْ هُدًى﴾ [مَرْيَم: ٧٦]، فَالإِيمَانُ يَزِيدُ بِالطَّاعَاتِ، وَيَنْقُصُ بِالمعَاصِي حَتَّى يَصِلَ إِلَى مِثْقَالِ ذَرَّةٍ، كَمَا فِي حَدِيثِ الأَمْرِ بِالمعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ المنْكَرِ، قَالَ ﷺ: «**فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ، وَذَلِكَ أَضْعَفُ الإِيمَانِ**»(٢)، فَدَلَّ عَلَى أَنَّ الإِيمَانَ يَكُونُ ضَعِيفًا، وَيَكُونُ قَوِيًّا، وَفِي الحَدِيثِ أَيْضًا: «**الإِيمَانُ بِضْعٌ وَسَبْعُونَ أَوْ بِضْعٌ وَسِتُّونَ شُعْبَةً فَأَفْضَلُهَا قَوْلُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأَدْنَاهَا إِمَاطَةُ الأَذَى عَنِ الطَّرِيقِ وَالحَيَاءُ شُعْبَةٌ مِنَ الإِيمَانِ**»(٣). فَدَلَّ عَلَى أَنَّ الإِيمَانَ فِيهِ أَعْلَى، وَفِيهِ أَدْنَى.

بِخِلَافِ المرْجِئَةِ فَإِنَّهُم يَقُولُونَ: الإِيمَانُ لَا يَزِيدُ وَلَا يَنْقُصُ، وَهُوَ شَيْءٌ

---

(١) انظر: العقيدة الواسطية لشيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ مع شرحها للمؤلف حفظه الله (ص١٣٤).

(٢) أخرجه مسلم (٤٩) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

(٣) سبق تخريجه (ص٤٦).

وَاحِدٌ لَا تَدْخُلُ فِيهِ الأَعْمَالُ، وَإِنَّمَا هُوَ فِي القَلْبِ فَقَطْ، فَهَذَا قَوْلٌ بَاطِلٌ بِلَا شَكٍّ؛ لِأَنَّهُ بِخِلَافِ الأَدِلَّةِ.

وَعَلَى العَكْسِ الخَوَارِجُ[1]، فَإِنَّهُمْ يَقُولُونَ: مُرْتَكِبُ الكَبِيرَةِ الَّتِي دُونَ الشِّرْكِ كَافِرٌ لَيْسَ عِنْدَهُ إِيمَانٌ. فَيَسْلِبُونَهُ الإِيمَانَ بِالكُلِّيَّةِ، وَيَجْعَلُونَهُ كَافِرًا وَمخُلَّدًا فِي النَّارِ وَالعِيَاذُ بِاللَّهِ، فَهَؤُلاءِ يَسْلِبُونَهُ الإِيمَانَ نِهَائِيًّا، والمُرْجِئَةُ يُعْطُونَهُ الإِيمَانَ كَامِلاً، هَذَا تَنَاقُضٌ بَيْنَهُمْ، أَمَّا أَهْلُ الحَقِّ وَأَهْلُ المَذْهَبِ الصَّحِيحِ فَإِنَّهُمْ يَقُولُونَ: إِنَّ الإِيمَانَ يَزِيدُ بِالطَّاعَةِ وَيَنْقُصُ بِالمَعْصِيَةِ، وَلَيْسَ إِيمَانُ النَّاسِ عَلَى حَدٍّ سَوَاءٍ، فَمِنْهُمْ مَنْ هُوَ مُؤْمِنٌ كَامِلُ الإِيمَانِ، وَمِنْهُمْ مَنْ هُوَ مُؤْمِنٌ نَاقِصُ الإِيمَانِ.

والمعْتَزِلَةُ جَاءُوا بِطَرِيقَةٍ جَدِيدَةٍ، فَقَالُوا: لَا نَقُولُ إِنَّ مُرْتَكِبَ الكَبِيرَةِ مُؤْمِنٌ، وَلَا نَقُولُ: إِنَّهُ كَافِرٌ، بَلْ هُوَ فِي مَنْزِلَةٍ بَيْنَ المنْزِلَتَيْنِ. فَمِنْ أُصُولِ مَذْهَبِهِم: المنزِلَةُ بَيْنَ المنْزِلَتَيْنِ، أَمَّا إِذَا مَاتَ وَلَمْ يَتُبْ فَهُمْ مِثْلُ الخَوَارِجِ يَقُولُونَ: مُخَلَّدٌ فِي النَّارِ. فَيَجْتَمِعُونَ مَعَ الخَوَارِجِ فِي عُقُوبَتِهِ فِي الآخِرَةِ وَأَنَّهُ مخَلَّدٌ فِي النَّارِ، وَأَمَّا فِي الدُّنْيَا فَأَحدَثُوا لهُمْ مَذْهَبًا لَيْسَ هُوَ مَذْهَبَ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالجَمَاعَةِ، وَلَيْسَ هُوَ مَذْهَبَ الخَوَارِجِ، وَلَيْسَ هُوَ مَذْهَبَ المرجِئَةِ أَيْضًا، فَيَقُولُونَ: هُوَ لَيْسَ بِمُؤْمِنٍ وَلَا كَافِرٍ. هَلْ هُنَاكَ مَنْ لَيْسَ

---

(١) هم الذين خرجوا على أمير المؤمنين علي ﷺ حين جرى أمر المحكمين، واجتمعوا بحروراء من ناحية الكوفة، وفيهم قال النبي ﷺ: «**يحقر أحدكم صلاته مع صلاتهم وصيامه مع صيامهم، يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية**» أخرجه البخاري (٢٦١٠)، ومسلم (١٠٦٤) من حديث أبي سعيد الخدري ﷺ. انظر: مقالات الإسلاميين (ص٤، ٨٦)، والفرق بين الفرق (ص٥٤)، والملل والنحل (١/ ١١٤).

بِمُؤْمِنٍ وَلَا كَافِرٍ؟ يَمْكُنُ هَذَا فِي المَجْنُونِ والصَّغِيرِ، أَمَّا البَالِغُ العَاقِلُ فَإِمَّا أَنْ يَكُونَ مُؤْمِنًا، وَإِمَّا أَنْ يَكُونَ كَافِرًا، قَالَ تَعَالَى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ﴾ [التغابن: ٢]، وَلَمْ يَقُلْ: وَمِنْكُمْ مَنْ هُوَ لَيْسَ بِكَافِرٍ وَلَا بِمُؤْمِنٍ، فَهَذَا قَوْلٌ مُبْتَدَعٌ وَلَا أَصْلَ لَهُ، وَلَكِنْ هَذَا هُوَ الضَّلَالُ، فَمَنْ تَرَكَ الحَقَّ فَإِنَّهُ يُبتَلَى بِالمتَنَاقِضَاتِ، وَيُبتَلَى بِالبَاطِلِ، وَيَهِيمُ عَلَى وَجْهِهِ مِنْ غَيْرِ دَلِيلٍ.

فَهَذِهِ أُمُورٌ لَابُدَّ مِنْ مَعْرِفَتِهَا؛ لِأَنَّهَا مَحَطُّ الجِدَالِ وَالكَلَامِ بَيْنَ أَهْلِ السُّنَّةِ وَبَيْنَ مخَالِفِيهِمْ مِنْ أَهْلِ البِدَعِ: الخَوَارِجِ وَالمُرْجِئَةِ وَالمُعْتَزِلَةِ، وَغَيْرِهِم.

عَوْدَةٌ إِلَى شَرْحِ الحَدِيثِ:

ثُمَّ إِنَّ جِبْرِيلَ ـ عَلَيْهِ السَّلَامُ ـ قَالَ لِلنَّبِيِّ ﷺ: «أَخْبِرْنِي عَنِ الإِحْسَانِ»، والإِحْسَانُ هُوَ المرتَبَةُ العُلْيَا، وَمَعْنَى الإِحْسَانِ: إِتْقَانُ الشَّيْءِ وَإِتمَامُهُ، قَالَ تَعَالَى: ﴿ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ﴾ [السجدة: ٧]، وَإِحْسَانُ العَمَلِ إِتمَامُهُ وَإِتْقَانُه، وَإِحْسَانُ الصَّنْعَةِ إِتمَامُهَا وَإِتْقَانُهَا؛ وَلِهَذَا يَقُولُونَ: أَنْتَ تُحْسِنُ كَذَا أَوْ لَا تُحْسِنُ؟ يَعْنِي هَلْ تَعْرِفُ هَذَا الشَّيْءَ تمَامًا أَوْ أَنَّكَ لَا تَعْرِفُهُ.

وَالإِحْسَانُ يَكُونُ بَيْنَ العَبْدِ وَبَيْنَ رَبِّهِ بِعِبَادَةِ اللَّهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَيَكُونُ الإِحْسَانُ بَيْنَ النَّاسِ بِالصَّدَقَةِ وَالمَعْرُوفِ وَبَذْلِ الخَيْرِ، وَالدَّعْوَةِ إِلَى اللَّهِ، وَتَعْلِيمِ العِلْمِ النَّافِعِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَأَحْسِنُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [البقرة: ١٩٥]، وَإِحْسَانُ العَمَلِ: إِتْقَانُهُ بِأَنْ يَكُونَ عَلَى السُّنَّةِ، وَلَيْسَ فِيهِ بِدْعَةٌ، فَإِذَا كَانَ فِي العَمَلِ بِدْعَةٌ فَإِنَّهُ لَيْسَ مِنْ إِحْسَانِ العَمَلِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿بَلَىٰ

مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ [البقرة: ١١٢]، وَقَالَ ﷺ: «مَنْ عَمِلَ عَمَلاً لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ»(١)، وَقَالَ: «وَإِيَّاكُمْ وَمُحْدَثَاتِ الأُمُورِ، فَإِنَّ كُلَّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ»(٢)، فَإِحْسَانُ العَمَلِ إِخْلَاصُهُ للَّهِ ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ وَمُوافَقَتُهُ لِلسُّنَّةِ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾، فَقَوْلُهُ: ﴿أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ﴾ بِالتَّوْحِيدِ وَالإِخْلَاصِ، ﴿وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ أَيْ: مُتَّبِعٌ لِلرَّسُولِ ﷺ، وَلَمْ يَتَقَرَّبْ إِلَى اللَّهِ بِالبِدَعِ وَالمحْدَثَاتِ.

وَفِي هَذَا الحَدِيثِ: الإِحْسَانُ «أَنْ تَعْبُدُ اللهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ»، هَذَا هُوَ الإِحْسَانُ بَيْنَ العَبْدِ وَبَيْنَ رَبِّهِ، أَنْ تَعْبُدَ اللهَ مُوقِنًا بِهِ مُؤْمِنًا بِهِ تمَامَ الإِيمَانِ حَتَّى كَأَنَّكَ تَرَاهُ بِبَصَرِكَ، مِنْ شِدَّةِ الإِيمَانِ؛ لَأَنَّ الشَّيْءَ الذِي يُرَى لَا يُشَكُّ فِيهِ، فَعِنْدَمَا تَرَى الجِدَارَ لَا تَشُكُّ فِيهِ، أَوْ تَرَى البَابَ لَا تَشُكُّ فِيهِ أَبَدًا، فَالإِحْسَانُ أَنْ تَعْبُدَ اللهَ ـ جَلَّ وَعَلَا ـ كَأَنَّكَ تُشَاهِدُهُ بِعَيْنِكَ مِنْ قُوَّةِ إِيمَانِكَ وَيَقِينِكَ، وَإِلَّا فَإِنَّ اللهَ لَا يُرى فِي هَذِهِ الدُّنْيَا؛ لِأَنَّ الخَلْقَ لَا يَسْتَطِيعُونَ رُؤْيَةَ اللَّهِ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا، وَإِنَّمَا يَرَاهُ المؤْمِنُونَ يَوْمَ القِيَامَةِ فِي الجَنَّةِ إِذَا أَعْطَاهُم اللهُ قُوَّةً يَسْتَطِيعُونَ بِهَا أَنْ يَرَوْا رَبَّهُمْ، أَمَّا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا فَلَا أَحَدَ يَرَى اللهَ مُعَايَنَةً، إِنَّمَا يَرَاهُ بِقَلْبِهِ وَإِيمَانِهِ وَيَقِينِهِ كَأَنَّهُ يُشَاهِدُهُ.

لِهَذَا لَمَّا سَأَلَ مُوسَى ـ عَلَيهِ السَّلَامُ ـ: ﴿قَالَ رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرۡ إِلَيۡكَۚ﴾، قَالَ اللهُ لَهُ: ﴿لَن تَرَىٰنِي﴾ [الأَعْرَاف: ١٤٣]، يعني: فِي الدُّنْيَا؛ لِأَنَّ مُوسَى ـ عَلَيْهِ السَّلَامُ ـ لَا يَسْتَطِيعُ رُؤْيَةَ اللَّهِ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا، وَلَا أَحَدَ يَسْتَطِيعُ رُؤْيَةَ اللَّهِ

---

(١) سبق تخريجه (ص٣٩).

(٢) سبق تخريجه (ص٣٩).

فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لِعَظَمَتِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؛ لِأَنَّهُ احْتَجَبَ عَنْ عِبَادِهِ بِالنُّورِ، كَمَا فِي الحَدِيثِ: «حِجَابُهُ النُّورُ»(١)، فَلَا أَحَدَ يَرَى اللهَ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا، وَإِنَّمَا دَلَّتِ الأَدِلَّةُ فِي الكِتَابِ وَالسُّنَّةِ عَلَى أَنَّ المؤْمِنِينَ يُكْرِمُهُمُ اللهُ يَوْمَ القِيَامَةِ؛ فَكَمَا أَنَّهُمْ عَبَدُوهُ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا مِنْ غَيْرِ رُؤْيَةٍ لَهُ، وَإِنَّمَا آمَنُوا بِهِ، فَإِنَّ اللهَ يُقِرُّ عُيُونَهُمْ بِأَنْ يَتَجَلَّى لَهُمْ وَيَرَوْنَهُ عَيَانًا بِأَبْصَارِهِمْ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى(٢)، أَمَّا الكُفَّارَ لَمَّا لَمْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا فَإِنَّ اللهَ يَحْجُبُهُمْ عَنْ رُؤْيَتِهِ يَوْمَ القِيَامَةِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ﴾ [المطَفِّفِين: ١٥]، فَإِذَا كَانَ الكُفَّارُ يُحْجَبُونَ عَنِ اللَّهِ فِي الآخِرَةِ، فَإِنَّ المؤْمِنِينَ يَرَوْنَ رَبَّهُمْ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؛ كَمَا تَوَاتَرَتْ بِهَذَا الأَدِلَّةُ، فَقَوْلُهُ: «كَأَنَّكَ تَرَاهُ» هَذَا دَلِيلٌ عَلَى أَنَّهُ لَا يُرَى فِي الدُّنْيَا مُعَايَنَةً، وَإِنَّمَا يُرَى فِي القَلْبِ وَاليَقِينِ وَالإِيمانِ الَّذِي لَا يُخَالِطُهُ شَكٌّ، وَهَذِهِ أَعْلَى المرَاتِبِ.

وَبَعْدَهَا مَرْتَبَةٌ قَالَ فِيهَا ﷺ: «فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ» يَعْنِي: لَمْ تَصِلْ إِلَى هَذِهِ الدَّرَجَةِ مِنَ اليَقِينِ «فَإِنَّهُ يَرَاكَ» أَيْ: تُؤْمِنُ بِاطِّلَاعِ اللَّهِ عَلَيْكَ، وَهَذِهِ أَقَلُّ مِنَ الأُولَى، لَكِنَّهَا دَرَجَةٌ عَالِيَةٌ، فَتَعْبُدُهُ مُؤْمِنًا بِأَنَّهُ يَطَّلِعُ عَلَيْكَ، وَيَرَاكَ فِي جَمِيعِ تَصَرُّفَاتِكَ، «فَإِنَّهُ يَرَاكَ» يَعْنِي: اعْتَقِدْ بِقَلْبِكَ وَاسْتَحْضِرْ أَنَّ اللهَ

---

(١) أخرجه مسلم (١٧٩) من حديث أبي موسى رضي الله عنه.

(٢) تواترت الأحاديث الصحيحة التي تثبت رؤية المؤمنين ربهم يوم القيامة، منها ما أخرجه البخاري (٥٥٤)، ومسلم (٦٣٣) من حديث جرير بن عبدالله البجلي رضي الله عنه قال: كنا جلوسًا عند رسول الله ﷺ إذ نظر إلى القمر ليلة البدر، فقال: «**أما إنكم سترون ربكم كما ترون هذا القمر لا تضامون في رؤيته**»، ومنها حديث أبي هريرة رضي الله عنه الذي أخرجه البخاري (٧٤٣٧)، ومسلم (١٨٢)، وحديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه الذي أخرجه البخاري (٧٤٣٩)، ومسلم (١٨٣).

يَرَاكَ وَيَطَّلِعُ عَلَيْكَ، وَهَذِهِ مَرْتَبَةٌ عَظِيمَةٌ وَلَا شَكَّ، وَهِي تُسَمَّى: مَرْتَبَةُ المرَاقَبَةِ ـ مُرَاقَبَةِ اللَّـهِ ـ جَلَّ وَعَلَا ـ وَلَكِنَّهَا أَقَلُّ مِنَ الأُوْلَى، فَالإِحْسَانُ بَيْنَ العَبْدِ وَبَيْنَ رَبِّهِ هُوَ مَا بَيَّنَه الرَّسُولُ ﷺ فِي هَذَا الحَدِيثِ؛ أَنَّ المؤْمِنَ يَعْبُدُ اللهَ عَلَى اليَقِينِ وَالإِيمَانِ، إِمَّا اليَقِينُ الذِي يجْعَلُ العَبْدَ كَأَنَّهُ يَرَى اللهَ، أَوِ اليَقِينُ الذِي يَسْتَحْضِرُ بِهِ العَبْدُ أَنَّ اللهَ مُطَّلِعٌ عَلَيْهِ وَمُشَاهِدٌ لِأَعْمَالِهِ، فَلَا يَنْحَرِفُ عَنْ طَاعَتِهِ، وَإِذَا انْحَرَفَ أَوْ أَخْطَأَ فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللهِ؛ لِأَنَّهُ يَعْلَمُ أَنَّ اللهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ وَلَا يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ اللَّـهِ عَزَّ وَجَلَّ، فَالإِنْسَانُ لَيْسَ مَعْصُومًا، وَلَكِنْ إِذَا حَصَلَ مِنْهُ مُخَالَفَةٌ فَإِنَّهُ يُبَادِرُ بِالتَّوْبَةِ إِلَى اللَّـهِ، وَيَعْلَمُ أَنَّ اللهَ يَتُوبُ عَلَى مَنْ تَابَ، وَلَا يَأْخُذُهُ القُنُوطُ وَاليَأْسُ مِنْ رَحْمَةِ اللَّـهِ، وَلَا يَتَلَاعَبُ بِهِ الشَّيْطَانُ حَتَّى يَيْأَسَ مِنْ رَحْمَةِ اللَّـهِ، هَذَا هُوَ الإِحْسَانُ.

فَدَلَّ هَذَا الحَدِيثُ عَلَى أَنَّ الدِّينَ يَتَفَاضَلُ وَأَنَّ بَعْضَهُ أَعْظَمُ مِنْ بَعْضٍ، فَأَوَّلُ مَرَاتِبِهِ هِيَ الإِسْلَامُ، وَهُوَ الانْقِيَادُ للَّـهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَهُوَ عَلَى قِسْمَينِ:

القِسْمُ الأَوَّلُ: إِسْلَامٌ مَعَهُ إِيمَانٌ، سَوَاءً كَانَ قَلِيلاً أَوْ كَثِيرًا، وَهَذَا إِسْلَامُ المؤْمِنِينَ، وَهُوَ الإِسْلَامُ الصَّحِيحُ الذِي يُثَابُ عَلَيْهِ، وَهُوَ الإِسْلَامُ الذِي مَعَهُ إِيمَانٌ يُصَحِّحُهُ وَلَوْ كَانَ قَلِيلاً؛ وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا﴾ [الحجرات: ١٤]، لَيْسَ مَعْنَى هَذَا أَنَّ هَؤُلاءِ الأَعْرَابَ مُنَافِقُونَ، لَكِنْ مَعْنَاهُ أَنَّهُمْ لَـمْ يَتكَامَلْ عِنْدَهُمُ الإِيمَانُ، وَهُمْ ادَّعَوْا مَنْزِلَةً لَـمْ يَصِلُوا إِلَيْهَا حِينَمَا قَالُوا: ﴿ءَامَنَّا ۖ﴾ فَلَوْ قَالُوا: ﴿أَسْلَمْنَا﴾. لَكَانَ هَذَا هُوَ التَّعْبِيرُ السَّلِيمُ؛ وَلِـهَذَا قَالَ اللهُ: ﴿وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا﴾، ثُمَّ قَالَ: ﴿وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ ۖ﴾ (لَـمَّا) للمُسْتَقْبَلِ الَّذِي لَيْسَ مَوْجُودًا الآنَ

وَلَكِنَّهُ سَيُوجَدُ، فَاللهُ بَشَّرَهُمْ بِأَنَّ الإِيمَانَ سَيَدْخُلُ فِي قُلُوبِهِمْ فِي المسْتَقْبَلِ، وَيَقْوَى إِيمَانُهُمْ شَيْئًا بَعْدَ شَيْءٍ، وَلَكِنَّهُمْ اسْتَعْجَلُوا وَقَالُوا: ﴿ءَامَنَّا﴾ فَهُمْ ادَّعَوْا مَنْزِلَةً لَمْ يَصِلُوا إِلَيْهَا؛ فَلِذَلِكَ أَنْكَرَ اللهُ عَلَيْهِمْ، وَبَيَّنَ اللَّائِقَ بِهِمْ، وَأَنَّ الإِنْسَانَ لَا يُكَمِّلُ نَفْسَهُ وَيَدَّعِي شَيْئًا لَمْ يَصِلْ إِلَيْهِ، قَالَ: ﴿وَلَٰكِن قُولُوٓاْ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ﴾ لَمْ يَقُلْ: لَمْ تُؤْمِنُوا، بَلْ قَالَ: ﴿وَلَمَّا﴾ وَفَرْقٌ بَيْنَ (لمَّا) وَبَيْنَ (لَـمْ)، (لَـمْ) لِلنَّفْيِ المطْلَقِ، أَمَّا (لَـمَّا) فَهِيَ لِلنَّفْيِ المؤَقَّتِ.

قَالَ: «أَخْبِرْنِي عَنِ السَّاعَةِ» إِلَى آخِرِ الحَدِيثِ، لَـمَّا كَانَ مِنْ جُمْلَةِ أَرْكَانِ الإِيمَانِ: الإِيمَانُ بِاليَوْمِ الآخِرِ، وَهُوَ يَبْدَأُ بِقِيَامِ السَّاعَةِ وَنِهَايَةِ الدُّنْيَا، فَقِيَامُ السَّاعَةِ هُوَ نِهَايَةُ الدُّنْيَا، وَبِدَايَةُ الآخِرَةِ، فَهُوَ الأَجَلُ الذِي ضَرَبَهُ اللهُ ـ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ـ لِهَذِه الحَيَاةِ، يَنْتَهِي ثُمَّ تَقُومُ القِيَامَةُ، وَالإِيمَانُ بِذَلِكَ رُكْنٌ مِنْ أَرْكَانِ الإِيمَانِ، فَمَنْ شَكَّ فِي قِيَامِ السَّاعَةِ، أَوْ تَرَدَّدَ أَوْ جَحَدَ قِيَامَ السَّاعَةِ فَإِنَّهُ كَافِرٌ، قَالَ تَعَالَى: ﴿زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن لَّن يُبْعَثُواْۚ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْۚ وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [التغابن: ٧]، وَلَا يَكْفِي أَنَّ الإِنْسَانَ يُؤْمِنُ بِاليَوْمِ الآخِرِ، بَلْ لَابُدَّ أَنْ يَعْمَلَ لِلْيَوْمِ الآخِرِ، فَيَعْمَلُ الصَّالِحَاتِ وَيَتُوبُ مِنَ السَّيِّئَاتِ، وَيَسْتَعِدُّ لِهَذَا اليَوْمِ، هَذَا هُوَ المقْصُودُ، أَمَّا مجُرَّدُ الإِيمَانِ بِاليَوْمِ الآخِرِ وَلَا يَسْتَعِدُّ وَلَا يَعْمَلُ لَهُ فَإِنَّهُ لَا يَسْتَفِيدُ مِنْ هَذَا الإِيمَانِ، وَقِيَامُ السَّاعَةِ وَتَوْقِيتُهُ لَا يَعْلَمُهُ إِلَّا اللهُ ـ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ـ اسْتَأْثَرَ اللهُ بِعِلْمِهِ، فَلَمْ يُخْبِرْ بِهِ المَلَائِكَةَ، وَلَمْ يُخْبِرْ بِهِ الرُّسُلَ؛ بَلْ إِنَّ اللهَ ـ جَلَّ وَعَلَا ـ أَخْفَى عِلْمَهُ عَنْ الخَلْقِ؛ لِأَنَّهُ لَيْسَ لِلنَّاسِ مَصْلَحَةٌ فِي مَعْرِفَةِ مَتَى تَقُومُ السَّاعَةُ، إِنَّمَا المصْلَحَةُ فِي الإِيمَانِ بِقِيَامِهَا وَالاسْتِعْدَادِ لَهَا، هَذَا هُوَ المقْصُودُ، وَأَمَّا